# يوسف حسن السعيدي كما عرفته

■ يوسف حسن السعيدي

■ الراحل إلى اليسار مع د.رابضة

**تواترت وفيات الأصدقاء والأحبة وهي سنة الله في خلقه ولا مرد لقضائه وقدره، قبيل حلول هذا الشهر الفضيل من عام 1430هـ الموافق 2009م بدءاً بالأستاذ الفاضل الأديب عبدالله فاضل مستشار رئيس جامعة عدن والأستاذ الدكتورالبحاثة الكبير جعفر الظفاري مؤسس مركز الدراسات والبحوث بجامعة عدن ( ولي معه ذكريات ينبغي أن نفرد لها حديثاً منفصلاً في حلقة قادمة أن شاء الله )، والشاب الخلوق الشهيد ياسين حيدر مدير مراكز تحفيظ القرآن في عدن عضو المجلس المحلي فيها،والذي طالته رصاصات الغدر الآثمة،وهو الآخر نحسبه من الأفراد القلائل الذين تحلوا بصفات قلما نجدها في الآخرين،من علو الهمة في خدمة المواطنين وصدق النية في التعامل مع قضاياهم،وهو من أؤلئك الذين لايرجون جزاء ولاشكورا من أحد من الناس ، ووصولاً إلى الأستاذ الصديق الكبير والمربي القدير يوسف حسن سعيدي الذي وافته المنية في الثاني من شهر رمضان الفضيل من عام 1430هـ /2009م ،وقضت المقادير أن يتوفى في ذكرى يوم مولده الموافق 1918م و يكون بذلك قد أكمل الحادية والتسعين من عمره .**

**ولا شك أنني في هذه العجالة لن أقف إلاّ على صور محددة من حياة هذا الفقيد ،وهي الصور التي أرتسمت في ذهني ومخيلتي، فهو من الأصدقـــــاء المتميزين الذي يضعون بصماتهم بقوة في حيوات أصدقائهم .**

د. أحمد صالح رابضة

تجـدر الملاحظة أن بعض مراجع تاريخ عدن الحديث والمعاصر قد اشـارت إلى هذه الشـخصية، ولعل أبرز اشارة وردت في كتاب الأستقلال الضائع للأستاذ عبده حسين الادهل ، تشير إلى أنه من أوائل الخريجين من أبناء اليمن في عدن وترددت هذه الأشارات عند فيتالي ناوؤماكين في كتابـه الجبهة القومية وعلي صلاح لرضي في كتابه تاريخ التعليم في عدن والمصري في كتابة النجم الاحمر فوق اليمن وغيرها .

ويظهـر انـه بعد تخرجه شـغل منصب مدير مدرسـة السـيلة «المتحف الحربي حالياً « وهي من أعرق المدارس حيث شيدت في سنة 1918م على الأرجح الأعم على طراز فيكتوري هندي ،على غالب الظن،وتعد معلماً تاريخياً بارزاً في عدن .

وشيدت في الخط نفسه لفيف من المدارس اليهودية والعربية إحداهـا مـا أنفكـت قائمـة تشـغلها اليـوم أدارة الضرائب في عدن وكانت تسـمى فيما تقدم من السـنين ب مدرسـة « سليم اليهودية».

كما تقف مدرسة قديمة أخرى قبالة منزله الذي يقف بحذائه منزل الشاعر الأديب الكبير القرشي عبدالرحيم سلام قد قامت اليوم على انقاضها المكتبة الوطنية في الثمانينيات من القرن الفائت .

لم أقف على طرائق التدريس في مدرسة السيلة ، لكن المتبادر أن ادارة المدرسة كانت تضم لفيفاً من خيرة الاداريين والمدرسين الأكفاء ، ويترأس مجلسـها الأستاذ السعيدي الذي تساعده قامته الفارعة وقوة شـخصيته على خلـع هالة من التبجيـل والتقدير والأحترام له في عموم المدرسة كلها ، ومع ما تحلى به من دماثة الخلق والتواضع ، فقد كان مديراً مهاباً يخشاه التلامذة والمدرسون على حد سواء .

وفي خضم مشاغله التربوية فقد أعتنى كثيرا بالسباحة وساهم مساهمة فاعلة في تأسيس مسـبح حقات وشغل منصب المدير فيـه .... وقد غمره بعنايتـه وأحاطه برعايتـه .... وكنت تراه في المسبح في السبعينيات يرقب كل شيء عن كثب ، وقد اراد نسخ التجربة البريطانية في فن السباحة متوخيا الأخذ بكافة أرشاداتها، وطرائقها وأفلح في الكثير منها وأخفق في بعضها ......

***

وأيا ما كان فقد كان مسـبح حقات في عهده أنموذجا رائعا من المسـابح المتطورة في مدينة عدن حيث لم يأل جهدا في سبيل تطويره الا بذلـه ... وكان كثيرا ما يرفع الالتماس خلف الألتماس إلى جهات الاختصاص لايلاء المزيد من العناية وكان اخلاصه وحده يجعـل تعاون هذه الجهات ممكنا ، وليس من الغلو القول أن عقد المسبح انفرط بمجرد أنصراف الأستاذ السعيدي من المسبح حيث تلقفته أيادي أخرى عاثت فيه ولم تحسن القيام به فأغلق أبوابه في وجوه محبيه ومريديه ، وهو المسبح الوحيد في مدينة بركانية المنشأ ، اما السعيدي فقد ألقى عصا تسياره على حين غرة ووقف وقفة أعياء بيد أنه سـرعان ما واصل ترحاله فعين مديرا لمكتبة مسـواط ، أن لم تخني الذاكرة وكان في عملـه الجديد مثالا كما عهدناه لـلأداري المخلص المتفاني في عملـه المحب لوطنه ... وكان يجهد نفسه كثيرا متتبعا أمور الفهرسة والتصنيف والتنسيق والحفظ والتـداول والتزويد وكأنه متخصص فيها ... وكان يؤذيه كثيرا عبـث بعض القراء بالكتب المعارة ، فينبه بضرورة الالتزام بالقراءة السليمة للكتاب والحفاظ عليه ، وله الكثير من اليافطات والشعارات الداعية إلى ذلك .... أما الهدوء في قاعات القراء فحدّث ولا حـرج ، أذ كان يلزم الأداريين والقراء على حد سـواء بضرورة الألتزام بذلـك وقد يضطر إلى التشـاجر معهـم معتبرا الصمت والهدوء فـي قاعات المكتبة جـزءا لا يتجزأ من حضارة الأنسـان المتمدن .

وكنت قد قرأت في مكتبه- الذي كثيرا ماأرتاده- الكثير من التراث الهندي والباكسـتاني المترجم،ومنه ماكتب عن المهاتما غاندي والشاعر أقبال وغيرهما،ولعل من النصفة القول: أن هذا الأداري المتميز لـم أره قابعا في مكتبـه الا في أوقات قلائـل من اليوم فهو كثير التجوال في المكتبة مراقبا أوضاعها وسير أعمالها ومن طرائفه التي لا ينبغي أغفالها أنه إذا رأى حمام المكتبة( التواليت) على حد قوله ملوثا اقام الدنيا وأقعدها ، فإذا أكتشف أن الجاني أحد القراء استدعاه وأدخله عنوة إلى الحمام ليزيل الأوساخ والشوائب من الحمام ,كانت مكتبة مسـواط في عهده في السبعينيات من القـرن الفائت صورة منه , يتوخى فيهـا النظافة والدقة والنظام والتنسيق والترتيب كما لو كانت داره التي يأوي إليها ويرتاح فيها , وكانت زاخرة بالكتب مصادر ومراجع , العربية والأنكليزية والأردية وغيرها ولكل قسم فيها خصوصياته , ولعلي مازلت أذكر إنه ذات مرة ألتمس كتاب في قسم المراجع الأنكليزية فوجده مغبرا والتراب عالق به , فأستدعى المختص وأطال في تأنيبه حتى كاد يبكي, وعلى الرغم من الظروف التي أحاطت بتلك المرحلة فإنه كان يسـعى جاهدا إلى تزويـد المكتبة بالجديد والمسـتجد مـن المعارض التي تقام بيـن الحين والآخر وكان يقع في حيص بيص حينما تفرض عليه جهات الأختصاص شـراء كتب بعينها تتفق مع توجهات المرحلة فتأبى نفسـه ذلك ويميل ميلا شديدا إلى كتب التراث والقصص التراثية والعلمية , ثم ترجح كفته فيبتاع مايشاء من الكتب التي يرى ضرورة توفرها في المكتبة ولكنه في الغالب الأعم لايحفل بطنين أجنحة الذباب على حد قولـه , ولا يلتفت لآراء بعض الصغـار ويقف منافحا عن رآيه وأذكر أن أحدهم أعتبر كتاب « الفقه على المذاهب الأربعة « مـن الكتب المحظورة التي ينبغي الحذر منها , ودعى إلى ضرورة إنتزاعه من موضعه فأصر الأستاذ يوسـف على رأيه , وأبقاه في موضعه من المكتبة وتعليل ذلك لا يحتاج إلى إطالة قول .

****

وتقلب صاحبنا في العديد من الوظائف الحكومية وشغل منصب مدير عام الشـئون المالية والأدارية فـي المركزاليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف وكان الأستاذ البحاثة عبدالله أحمد محيرز مدير عام المركز يطمئن إليه ويثق فيه , لكنه كان وقتئذ قد دلف إلى العقد الثامـن من عمره فضعفت همتـه الأدارية وأخذت آفة النسـيان تتسـرب إلى ذهنه رويدا رويدا ،ومـع ذلك ظل يمارس مهامه حتى حل محلـه مديرمالي وإداري آخر , ومنذ أن تحلل من قيود الوظيفة وبشكل تدريجي أو كاد, كنت في مطالع الثمانينات قد شرعت في توثيق معالم مدينة عدن التاريخية , وقيّض الله لي هذا الصديق الكبير الذي أصر أن يصطحبني ويرافقني في جولاتـي المتواضعة في جبال عـدن ودروبها ووهادها باحثا ومسـتقصيا ومصورا للمعالم والسدود والقلاع والحصون، وكان حينها قد بلغ سنا تسميه العرب «دقاقة الرقاب « العقد السابع من العمر ويزيد , وقد ألتمست المعونة والتوفيق من الله قبل الشروع في جولاتـي معه , خشية أن يصاب هذا الصديق الكبير بأذى .

وكيفما كان الحال , أخذ الأستاذ يوسف عصاه وأخذنا في التجوال في جبـال عدن وحصونها وأسـوارها القديمة بـدءا بجبل صيرة والخضراء وأنتهاءا بشمسـان وضراس « أبو الوادي ومعاشـيق « وكنـت أرى همة فيه لانظير لها وقدرة فائقة في التسـلق بحيث قذف بعصاه التي كان يتوكأ عليها ولم يستخدمها بعد ذلك،فزادني ذلك خوفا عليه من التعثر والسقوط رغم أنني كنت أسلك المسالك المعبدة , وفي ذات مرة أسـدل الليل سـتاره أو أوشك، على حين غرة وأخذت الـكلاب تنبح في الجبل فأضطرنا إلى قذف أنفسـنا في منحذر ترابي أفضى بنا إلى أبي الوادي , وقد أفلحنا ولكن بعد إصابات وخدوش في أجسادنا لعل أثارها مابرحت في جسدي .

لقد كان رحمة الله عليه جلـدا صبورا وكان يميل كثيرا إلى حب التراث والتراثيين ويسعى جاهدا إلى تشجيع الشباب على العمل والجهد والمثابرة في كل مجال يرغبون فيه وكان كلما أحس بوطأة الملل والضجر تسيطر علَيّ يقول :

أتحسب أنك نجم صغير      وفيك أنطوى العالم الاكبر.

*****

وجملة القول , فإنـه ليس من الغلو والتزيد القول : أن يوسـف السـعيدي يعد بحق من أعلام عدن البارزين ولـه أدواره الفاعلة في الأدارة والتربيـة والتعليم والرياضة , وعليـه فإنه ينبغي أن نذكر لذوي الفضل فضلهم ولا نغمط الناس المتميزين حقهم في التنويه بذكر محاسنهم ولو بعد رحيلهم وهذا دأبنا فنحن لانذكر أعلامنا إلا بعد الرحيل .

رحمة الله عليـك أيها الصديق الكبير فقد كنت ترجو أن يختلط تراب جسدك مع تراب سكان القطيع ومثاويهم الطاهرة وتمتزج أنفاسـك بأنفاس البيلقاني ولطفي وفاضل وياسين وأجداث من سبقك ومن لحق بك .

إننا نعلم على القطع إنك تود ذلك ، ولكن لم تظفر به، فقد كانت السـحب وقتئذ تغمر الكون فلا تدعك تمـد بصرك إليهم وكانت المقادير تستنهضك للمضي إلي حيث تريد هي , وكانت الشارقة هي المثوى الأخير لك،حيث سلواك وفلذات كبدك .

******

لقد كنت ـ صديقنا الكبير ـ مثالا للأداري «الكلاسيكي « المخلص الذي وهب نفسه لوطنه وخرج بخفي حنين فقد كنت تبذل الغالي والنفيس من حر مالك « راتبك الضئيل « لأصلاح مالم تسـتطع الادارات الهشة إصلاحه ولا ترجو جزاء ولا شكورا وفقـدت دارك التي شـيدت في مقط التراب عيـن اليمن , ودعوت كما دعونـا فـي مظاهـرة «العجب العجـاب» في السـبعينيات من القـرن الفائـت إلـى تخفيـض الرواتـب وتأميـم المسـاكن , فخفـض راتبك وأمم مسـكنك وكدت تعض علـى نواجذك من الغيض والكمد وبكيت أمام المرآة حزنا علـى ضآلة الراتـب وفقدان الدار لقد جنت على نفسها براقش !! إن عيـن اليمن تـود لو كنت فـي ثراها ثـرى نقيا طاهـرا , فهـي ماأنفكت تحـن إليك وإلى جهودك المثمرة في مدرسـة السـيلة، ومسبح حقات،ومكتبة مسـواط، ومركز الأبحـاث الثقافية , ولكننا في الختام إلى الله وحده نفزع في إلتماس الرحمة لك والرضوان وأن يسـكنك فسيح الجنان والحمد لله الواحد المنان الذي لايبقي على الارض لاانسا ولا جان .

■ الراحل يوسف السعيدي خامساً مع أعضاء ادارة مكتبة مسواط في السبعينات



■ منظر عام لجبل شمسان أمام قصر السلطان

■ مزار ريحان الظافري في منطقة أبو الوادي بكريتر

■ السعيدي في مكتبه بمكتبة مسواط